مجلة المجمع العلمي العربي

(دمشق) : نيسان سنة ١٩٢٨ م الموافق شوال وذي القعدة سنة ١٣٤٦ هـ

محمد والمرأة (١)

مواضيع الخطابة كثيرة . والحفلات الخطابية ايضاً كثيرة . ولكن الحفلة الممتازة بسيداتها وساداتها ، ينبغي ان تكون خطبتها ممتازة بموضوعها ولطيف اشاراتها .

فمن لي ياسادتي بموضوع ممتاز كامتياز حفلتكم هذه ؟

حقاً ان مراعاة التناسب بين الموضوع والحفلة هو موضع الصعوبة في الامر .

فمرت يوماً كلمة «النسء» أمام فتاة متعلمة وقلت ان معناها الطرد والابعاد والتأخير . ومنه سميت «المنسأة» — وهي العصا — «منسأة» لان الراعي يطرد بها غنمه .

فاحتدمت الفتاة غيظاً وقالت :

إذن سمى العرب النساء نساء لانهن مبعدات مطرودات ؟ !!

فعجبت من استنتاجها ، وتعوذت بالله من لجاجها ، واجبتها على اعتراضها بما ارضاها في الجملة .

* * *

ولما دعيت الى الخطابة في هذه الحفلة رأيت الفتاة المذكورة يوماً مهتمة بمطالعة كتاب . فسألتها ما هذا الكتاب ؟

قالت الزبيدي .

والزبيدي ايها السادة كتاب ديني اختصر فيه مؤلفه احاديث البخاري كلها .

(١) خطاب ألقاه الاستاذ المغربي في حفلة جمعية تهذيب الشبيبة السورية في بيروت مساء الاربعاء ١١ كانون الثاني سنة ١٩٢٨ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

فشجعتها على قراءته ، وأثنيت عليها لاختيارها هذا الكتاب للمطالعة ، بدل تلك الكتب التي تولع بها الفتيات عادة .

أكملت الفتاة مطالعة « الزبيدي » ولم تكد تلقيه من يدها حتى التفتت الى من حولها وقالت : « انني لم أجد في جميع الاحاديث التي قرأتها في هذا الكتاب ما يشعر بان النبي صلى الله عليه وسلم كان يحتقر المرأة ، بل على العكس رأيته يكرمها و يسوي بينها وبين الرجال في التكاليف والاحكام فمن اين جاءت تهمة شارعنا الاسلامي بانه يحقر المرأة او يعلم بالحط من كرامتها ؟ !! » .

فلا اكتمكم ايها السادة انسروري باستنتاجها هذه المرة أتساني اغتمامي باستنتاجها في المرة الاولى . ومسرت بالاكثر مذ ظفرت بموضوع الخطاب الذي أرغبه لحفلتكم هذه ، وناديت : وجدته وجدته . كما نادى أرخميدس : وجدتها وجدتها .

نعم وجدت الموضوع أيها السادة لكنني لم أجد الوقت اللازم لتوفيته حقه ، لان جمعية التهذيب — والشكر لها على كل حال — لم تعطني وقتاً للكلام في حفلة ، وانما أعطتني وقتاً للمخابرة في تلفون . فاعذروني اذا أسرعت او اذا اختصرت .

* * *

كان العرب بمقتضى طبيعة بلادهم ، وتركيب امزجتهم يرون في المرأة هناءهم وراحة نفوسهم ، فأحبوها وكادوا يعبدونها . كما انهم بمقتضى طبيعة اجتماعهم ونظام الغارات والسبي المتعارف بينهم ، كانوا يرون في المرأة سبباً لمذآتهم ، ولحوق العار بهم . فتشاءموا بها الى حد ان وأدوها .

فكان العرب بين جاذبين : جاذب من طبيعة اقليمهم وأمزجتهم يجذبهم الى المرأة ، وجاذب من نظام اجتماعهم وحروبهم يبعدهم عنها .

وقد ولد محمد (ص) في جزيرة العرب وأهلها على ماوصفنا من الحالتين : فأقر الحالة الاولى حالة حب المرأة ، و باركها هاتفاً . « ومن آياته ان خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة » .

وقبح الحالة الثانية — حالة التشاؤم بالمرأة فرفع قدرها وأرجعها الى عرش سيادتها ونادي قائلا : المرأة سيدة بيتها . المرأة راعية في بيت زوجها وهي مسؤولة عن رعيتها ؟

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فالغرض من نبوة محمد إذن ليس توحيد الله فقط بل والتبشير بالمرأة والاحتفال بارجاعها الى عرش سيادتها .

قال عمر بن الخطاب : (والله كنا في الجاهلية ما نعد النساء شيئاً ، حتى انزل الله فيهن ما أنزل . وقسم لهن ما قسم) .

* * *

ومن تتبع سيرة النبي (ص) في أدوار حياته أدرك الاسباب التي جعلت نفسه الشريفة مستعدة لقبول هذا الوحي النسائي . مات ابوه ثم أمه وعمره بضع سنوات فتولت حضانته فتاة حبشية اسمها (بركة) وتكنى (ام ايمن) . وقد عكفت هذه الفتاة على تربيته وخدمته حتى بلغ الخامسة والعشرين من عمره . فكان قرير العين بما كان يراه في حاضنته هذه من العطف والعناية .

وشعر باول وظيفة من وظائف المرأة في هذا الوجود : المرأة من حيث هي امرأة ، حتى ولو كانت حبشية ومملوكة ، ولم تنتم الى عرق في العرب . اوشرف في النسب .

ثم شاءت العناية الالهية ان تنقل محمداً (ص) الى العيش . بقرب أشرف امرأة في قريش . فتزوج (السيدة خديجة بنت خويلد) .

شيء جديد في حياة محمد : انتقل الى طور آخر من معرفة المرأة واختبار وظائفها . ولم يعد ذلك الشاب التي تخدمه حاضنة متواضعة فيكرمها . بل الشاب الذي تحبه امرأة شريفة ويحبها . هو شاب في الخامسة والعشرين ، وهي كهلة في الاربعين . كأن العناية الالهية رأت انه ما زال في شبابه محتاجاً الى عطف امرأة ذات سن وتجربة وثروة فيسرت له الاقتران بخديجة .

مات زوجها الاول فخطبها أشراف قريش فامتنعت وفضلت الاستقلال بنفسها . والعكوف على اعمال تجارتها . وكانت تبحث عن ثقة من الرجال تكل اليه اشغالها . فمالبثت ان اهتدت الى محمد . فلم تره أميناً على مالها فقط ، بل وعلى قلبها ايضاً ، فأودعته ذلك جميعه .

كل من رأى محمد (ص) وسمع كلامه شعر بانه سيكون له شأن في نهضة العرب . وانقاذهم من جاهليتهم . ولم يكن هذا ليخفى على خديجة . فكانت تعتقد ان خطيبها سيكون من عظماء الرجال ومربي الامم والأجيال ، فزادت ولوعاً به وحرصاً على محبته .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

قال انس : كان النبي (ص) عند عمه ابي طالب . فاستأذنه في ان يتوجه الى خطيبته خديجة فأذن له ، وبعث في اثره جارية له تسمى نبعة وقال لها : انظري ما تقول خديجة لابن اخي محمد .

قالت نبعة : فرأيت عجباً : ما هو الا ان سمعت به خديجة فخرجت الى الباب فأخذت بيده فضمتها الى صدرها ونحرها . ثم قالت له : بابي وأمي لا أفعل هذا الشيء (الذي نهيتني عنه) ولكنني ارجو ان تكون انت النبي الذي سيبعث فان تكن هو فاعرف حقي ومنزلتي وادع الاله الذي يبعثك ان يبعثك لي .

قالت نبعة : فأجابت محمد : والله لئن كنت انا هو لقد اصطنعت عندي ما لا انساه ابداً . وان يكن غيري فان الآله الذي تصنعين هذا لاجله لا يضيعك ابداً .

لم يكن محمد ذا حظٍ من مال ونشب . ولم تكن اسباب رغد العيش متوفرة لديه في ماضي حياته وقد توفرت لديه الآن مذ تزوج بخديجة .

فما هو صانع ؟

أيتخذ من مال زوجته ونعمتها وسيلة الى اللهو والدعة والنعيم ؟

كلا . وانما اتخذ محمد الشاب من مال زوجته وسيلة الى فراغ قلبه من هم العائلة . كما اتخذ من حبها وطاعتها له وسيلة الى التفرغ لعبادة خالقه ، والى القيام بالعمل العظيم الذي يشغل باله .

ها هو محمد قد اعتزل الناس ، والتجأ الى غارٍ في جبل حراء . يناجي ربه ، و يسأله ان يهدي شعبه .

وها هي خديجة امرأته تشجعه وتبث الثقة والصبر والثبات في نفسه .

ها هي تعيّ له الزاد ليتقوت به في اثناء عزلته الطويلة .

ها هي مجدلية محمد في سفح الجبل مشرئبة الى الغار الذي اعتزل فيه زوجها ، وقلبها مفعم بالرجاء والايمان والثقة بالمستقبل . وهكذا ترى النبوة ولدت على يد المرأة « خديجة » بينما لم يشهد ولادتها احد من الرجال لا ابوبكر ولا عمر ، ولم يسمع بذكرها علي ولا معاوية . ثم ماتت خديجة ، فشاء ابو بكر اكبر صحابة محمد (صلى الله عليه وسلم) ان يتشرف بمصاهرته فزوجه ابنته « عائشة » .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

لم تكن عائشة زوجة فقط بل وتلميذة ايضاً .

وهذا هو الطور الثالث من أطوار محمد مع المرأة : بركة الحبشية تسهر عليه في طفولته . وخديجة الكبرى تحوطه وتشجعه في شبيبته . وعائشة الصديقة تسره وتكون تلميذة له في كهولته .

اختبر محمد (ص) المرأة في جميع ادوار حياته وامتزجت عاطفته بعاطفتها . طفلاً وشاباً وكهلاً . وكان لها من التأثير في حياته ما جعله يرفع منزلتها ويعلن حريتها ويسوي بينها وبين الرجال .

ومن أعجب المصادفات ان ينعقد مجمع « ماكون » في زمن محمد اي في سنة ٥٨٦ للميلاد ويبحث في هل المرأة انسان ؟ ثم قرر انها انسان لكنها انما خلقت لخدمة الرجل .

ولم يكد يصدر قراره هذا في فرنسا حتى نقضه محمد في الحجاز ورفع صوته قائلا : « انما النساء شقائق الرجال » ، بل قال للرجال : ألستم حريصين على دخول الجنة ؟ هذه الجنة التي تحرصون عليها هي « تحت أقدام الامهات » . وكل امرأة أم ، ان لم يكن بالفعل فبالقوة . ولم يقل احد في تكريم المرأة مثل هذا القول الذي قاله محمد . واذا كان قوم يحسبون المرأة شيطاناً فان محمد كان يراها تعويذة من الشيطان .

سأل فتى من صحابته وهو « معاذ بن جبل » :

— ألك زوجة يا معاذ ؟

— كلا !

— انت إذن من إخوان الشياطين . (يعني وكان الواجب عليك ان تتعوذ من الشياطين بامرأة تتزوجها) .

وقد أراد محمد (ص) بتكريم المرأة ، ورفع شأنها في عيون الرجال على هذه الصورة إفهامهم ان نهضته الجديدة انما تقوم على سواعد الجنسين معاً ، الرجال والنساء ، شأن النهضات العالمية الكبرى . ولما رأى النساء العربيات هذه النهضة التي نهضها بهن محمد اغتبطن بها ، ونشطن الى الازدياد منها ، حتى انهن لما رأين انفسهن مغبونات في بعض حقوقهن عقدن اجتماعاً منهن ، وقررن فيه ان يرفعوا الى النبي (ص) مطالبهن . فرفعنها بواسطة مندوب منهن واسم مندوبهن « اسماء بنت يزيد » الانصارية .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

جاءت اسماء النبي (ص) وقالت له : « انى رسول من ورائي من جماعة النساء وكلهن يقلن بقولي وعلى مثل رأيي » .

ثم عرضت على النبي مطالب النساء اللواتي ارسلنها فأجابها النبي عليها بما ارضاها وأعلن مسروره بحديثها وجرأتها والتفت الى من حوله من الصحابة وقال :

« هل سمعتم مقالة امرأة احسن سؤالاً عن دينها من هذه المرأة ؟ » .

وكفى بقوله هذا تنشيطاً للمرأة وتنويهاً بقدرها .

* * *

وكان النبي (ص) يحب ان لا يُستبد على المرأة في امر زواجها ، فهو يعطيها الحق في ان تتزوج من تختاره ، ويطيب لها العيش معه بشرط ان لا يحط هذا الزواج من كرامة عشيرتها . هذه الفتاة (بريرة) كانت مملوكة للسيدة « عائشة » فأعتقتها . وكانت (اي بريرة) متزوجة برجل اسمه (مغيث) فلما ملكت حريتها ملكت حق الاختيار في ان تبقى زوجة لمغيث او لا . ويظهر ان (بريرة) ما كانت في راحة من العيش مع (مغيث) فأعلنت انها لم تعد تريده زوجاً لها . فصعب الامر على مغيث وكان يحبها حباً جماً فاسترضاها فلم ترض . ها هي (بريرة) تمشي في سكك المدينة ، ومغيث المسكين يمشي وراءها ودموعه تتحدر على وجنتيه ، والناس ينظرون اليه . وقد أخذتهم الشفقة عليه ، و بريرة لاترق ولاترحم . ارحميه يا بريرة ، ارثي لحاله ، اعطفي عليه .

— كلا لا أريده .

اخبروا النبي (ص) بخبر بريرة ومغيث فدعاها اليه وكلمها بشأنه . فقالت له :

— أتأمرني امراً يا رسول الله ؟

— لا وانما انا اشفع .

— لا حاجة لي فيه .

فلم يعارضها النبي ولم يحلها في استعمال حريتها مع انها عتيقة زوجته ، وانما التفت الى عمه العباس وقال له : « ياعباس ألا تعجب من حب مغيث لبريرة ومن بغض بريرة لمغيث » ؟

وكما كان النبي (ص) يعترف للمرأة بحقها في الاستقلال بمصالحها الخاصة كان يرى لها الحق ايضاً في ان تشارك الرجال في خدمة المصالح العامة . واهم تلك المصالح في

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ذلك العهد مسألة تأييد الدعوة الاسلامية ومقاومة الذين يعارضونها . فكان للمرأة المساعي الحسنة في هذا السبيل . وقد توفرت طائفة من نساء الصحابة على مرافقة الجيش وخدمة المحاربين :

قالت ام عطية : كنت أصنع للمحاربين طعامهم واحفظ لهم خيامهم وأداوي جرحاهم وأقوم على مرضاهم .

وقالت ام سنان : لما اراد النبي الذهاب الى خيبر جئته فقلت له :

— أأخرج معك في سفرك هذا اخرز السقاء وأداوي المريض والجريح وأحافظ على الرحال

— اخرجي على بركة الله فان لك صواحب سألنني الخروج معي فأذنت لهن . فكوني مع زوجتي أم سلمة .

اما أم كبشة فلما استأذنته في الخروج معه قال لها لا : فقالت له :

— اني أداوي الجريح واقوم على المريض .

— اجلسي لا يتحدث الناس ان محمداً يغزو بامرأة .

فانظروا ايها السادة كيف ان النبي (ص) علل عدم اخذها معه بالخوف ان يشيع بين القبائل ان محمداً لا رجال عنده ولا ابطال . فهو يحارب بربات الحجال . ولم يقل لها اجلسي فليس الخروج مع الجنود من شأنك .

وقال انس : إنني في وقعة أحُد رأيت زوجة النبي عائشة ومعها أمي (ام سليم) مشمرتين اري خلاخيلها وهما تقفزان قفزاً وعلى ظهورهما قرب الماء تفرغانها في أفواه العطاش ثم ترجعان فتملآنها ثم تجيآن فتفرغانها في افواههم .

وهنا امرأة أخرى هي « رفيدة » الاسلمية ما كانت ترافق الجيش وانما نصبت خيمة في مسجد النبي (ص) وجعلت تداوي فيها الجرحى وتعالج المرضى .

ولما جرح سيد الانصار (سعد بن معاذ) في وقعة الخندق قال لهم النبي (ص) اجعلوه في خيمة رفيدة . هذه وظيفة (رفيدة) في زمن الحرب اما في زمن السلم فكانت تأتي بالعجزة والبائسين الى خيمتها فتخدمهم وتخفف آلامهم . فنعمت الخيمة خيمة « رفيدة » كانت مستشفى عسكرياً وقت الحرب . وملجأ للعجزة ايام السلم .

وجاء رجل من المشركين المحاربين الى السيدة (ام هانئ) واستجار بها فأجارته .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فعارضها بعض الصحابة وأراد ان لا يعتبر جوارها فاغتاظت منه وشكته الى النبي فقال لها « قد اجرنا من اجرتِ يا ام هاني » . وهذا من ام هاني مداخلة في امور سياسية عسكرية . وقد رأى النبي (ص) ان لها الحق فيما فعلت . ولم يقل لها : انه ليس من شأنكِ فعليكِ بالطبخ والزينة وتربية الاولاد فقط .

* * *

ولكن مع هذا ايتها السيدات كان محمد يرى ان الزينة وادارة المنزل هما اكبر وظائف المرأة . فكما كان يباهي بالمرأة القرشية التي تحفظ مال زوجها وتعكف على تربية اولادها — كان في الوقت نفسه يعجبه ان لا ننسى المرأة انوثتها ، ولا تهجر زينتها ، ولا تعطل بحال من الاحوال امومتها ، حتى انه كان يكره ان لا يرى اثر الخضاب في كفي المرأة (وكان الخضاب اجمل زينة للنساء في العصور الماضية) .

قالت ام سنان بايعت النبي على الاسلام فنظر الى يدي وليس فيها اثر للخضاب فقال : « ما على احداكن ان تغير اظفارها وتعصب يدها ولو بسير » فهو يحضها على الخضاب وان يكون في معصمها سوار . ولو سيراً من جلد .

عرف محمد (ص) نفسية المرأة وغرائزها الخاصة بجنسها . فكان يعاملها بمقتضى ما عرفه منها فيكثر من تأنيسها والرفق بها ، والإِنة القول لها . وان كثيراً مما كان يعامل به نساءه نراه اليوم غير لائق ولا مناسب . من ذلك انه كان يخرجهن معه في اسفاره . وكانت احداهن اذا ارادت الركوب بسط لها ركبته لتدوس عليها الى هودجها . واذا كان معها في الفلاة سابقها اشواطاً لاجل الرياضة وادخال المسرة عليها . وادخل الحبشة يوم عيد الى المسجد لترى لعبهم بالحراب كما يلعبون اليوم بالسيف والترس .

وكان للنبي (ص) جار من بلاد فارس فدعا هذا الفارسي النبي الى طعام ولم يدع معه زوجته السيدة عائشة . فلم يقبل النبي الدعوة ما لم تكن معه عائشة . فدعاها .

وكأن النبي يرى ان ترك دعوتها إهانة لها ولذا رفض الدعوة مالم تدع هي ايضاً . ونهى الرجل عن ضرب زوجته ونبهه الى ان ضربها لا يلائم طبيعة ما بينهما من العلاقة الزوجية : يضربها العصر ثم لا يلبث في العشي ان يتملقها و يلح في استرضائها فما اغناه عن الحالتين .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وما زالت الشرائع الانكليزية الى عهد قريب تجيز للزوج ان يضرب زوجته لكن بعصا لا تزيد ثخانتها على الاصبع .

وكان النبي (ص) يكرم حاضنته (بركة الحبشية) و يقول للصحابة هذه أمي بعد أمي . وكان يمازحها احياناً .

طلبت منه جملاً تركبه فوعدها بان يهدي اليهـا ابن الناقة . فصاحت : وما ذا اصنع بابن الناقة هل يطيق ان يحملني ؟ أريد جملاً .

فضحك الصحابة وقالوا لها و يحك يا بركة وهل الجمل الا ابن الناقة .

ورأى النبي (ص) في صبيحة يوم من الايام نساء مقبلات من عرس ومعهن صبيانهن فوقف لهن وهتف قائلاً « اللهم انتم من احب الناس اليّ . اللهم انتم من احب الناس اليّ » .

نعم ايهـا السادة هو يحب النساء ! . لانهن يربين الرجال كما ربته بركة في يتمه و يساعدن الرجال في النهضات الكبرى كما ساعدته خديجة في نهضته . و ينشرن الثقافة والعلم عن الرجال كما فعلت عائشة مذ حملت عنه ثقافته وبلغت أمته سنن شريعته .

تبشير محمد (ص) بالمرأة وتحريره لها من عبوديتها القديمة لم يخف امره على العلماء من كتبة اوربا حتى غير المنصفين منهم .

فقد قال المستشرق «اندره سرفيه» في كتابه الذي سماه (الاسلام ونفسية المسلمين) مانصه :

يتحرى محمد (ص) الاسباب التي تجعل المرأة من حزبه ولا يتكلم عنهـا الا بكل لطف و يجتهد في ان يحسّن احوالها . وكان النساء والاولاد قبله لا يرثون . بل الاسوأ من ذلك ان الاقرب نسباً للميت هو الذي كان يرث نساء الميت في جملة مايرث من مال ورقيق . وعندما نهض محمد (ص) اعطى المرأة حق الارث واوجب كل ما كان حسناً في حقها » .

ثم قال : « ومن اراد التحقق من عناية محمد (ص) بالمرأة فليقرأ خطبته في مكة التي اوصى فيهـا بالنساء . فمحمد لا يجهل ان المرأة اذا كانت اسيرة في النهار فهي سيدة في الليل . وان نفوذها ابداً عظيم ؟ » .

هذا ما قاله « اندره سرفيه » وهو ، بالرغم من طعنه في محمد لم يتمالك عن التصريح بانه حرر المرأة . بل ان العالم الالماني دريسمان صرح بان اعطاء محمد المرأة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

حريتها هو وحده السبب في نهوض العرب وقيام مدنيتهم . ولهذا لما عاد اتباعه فسلبوا المرأة هذه الحرية انحطوا واضمحلت مدنيتهم .

وقول (اندره سرفيه) « ان محمداً لا يجهل ان المرأة اسيرة في النهار » فيه لمز وتشنيع بالاسلام يحق لنا ان نعاتبه عليه :

لا نعلم ما هذه الامور التي جعلت « اندره سرفيه » واضرابه يلهجون بان المرأة المسلمة اسيرة او في حكم الاسير » .

أيريدون بتلك الامور يا ترى الحجاب والطلاق وتعدد الزوجات وتنصيف الارث وتنصيف الشهادة ؟ .

لا يمكننا ان نتكلم على هذه الامور الخمسة او الكليات الخمس بالتطويل وذلك لضيق الوقت من جهة ولان هذه « الكليات » طال فيها الجدل بين المسلمين وغيرهم بحيث اصبح الحديث عنها مملاً . ومع هذا فسأقول فيها كلمات تلفونية .

* * *

اول هذه الامور (الحجاب) وكلمتي فيه ان البشر من يوم اخذوا هذا التطور الاجتماعي وجد فيهم طبقات ارستوقراطية يرون من مصلحتهم او تميزهم ان يحتجبوا او يقللوا مخالطة غيرهم من الطبقات . وهذا كما يفعل الملوك والملكات بل عظماء الناس ونساؤهم الى يومنا هذا .

ونبوة (محمد صلى الله عليه وسلم) ليست من الارستوقراطية في شيء . فلم يضرب بينه وبين عامة الناس حجاباً . فكانوا يدخلون بيته لتلقي العلم كما يدخل التلاميذ مدرسة اساتذتهم .

لكن بعض هؤلاء التلاميذ كانوا ثقلاء في حديثهم . ثقلاء في طول زياراتهم .

فأشار عمر على النبي (ص) بمنع الناس من دخول بيته ، فلم يوافقه النبي احتفاظاً بما نسميه اليوم (ديمقراطية) . وتجنباً للمظاهر الملوكية .

ثم اشتدت ثقالة الثقلاء فنزل الوحي بحجاب نساء النبي (ص) وعدم دخول الناس بيته اللهم الا في احوال خاصة . هذا هو المظهر الوحيد من مظاهر الارستوقراطية الذي اضطر اليه النبي محمد (ص) بسائق الحاجة الماسة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ثم اخذ المسلمون يقلدون نبيهم عملاً بقاعدة (الناس على دين ملوكهم) فحجبوا نساءهم حتى اصبحت كل امرأة مسلمة ملكة محجبة . وكل بيت لمسلم بلاطاً ملوكياً .

ولكن ما أسوأ مصير الامة التي ليس فيها رعايا عاملات . وانما كل نسائها ملكات محجبات !

فالحجاب الاسلامي ياسيداتي وسادتي انما هو اثر من آثار ارستوقراطية المرأة وملكيتها في الاسلام . وليس هو اثر من آثار احتقارها او عبوديتها كما يظنه بعض الاقوام .

* * *

انتهت كلمتي في الحجاب وأنتقل الى الكلمة الثانية في «توريث البنت نصف ارث اخيها»

هذا الحكم الشرعي الاسلامي يجيب عليه الشارع الانكليزي الذي لم يورث البنت بل حصر ثروة الاب في اكبر الابناء . وذلك لان البكر عميد الاسرة ، وحامل لقبها . والمحافظ على تراث مجدها .

وكذلك شأن الابناء الذكور بالنسبة الى الاسرة في نظر الشارع الاسلامي : فان الابناء لما كانوا هم الذين يخلفون اباهم في أسرته كانوا في حاجة الى المال اكثر من اخواتهم البنات اللواتي يندمجن في أسرة أخرى غير مكلفات فيها النفقة .

فالمسألة إذن ليست مسألة تفضيل رجل على امرأة وانما هي مسألة اجتماعية اقتصادية .

على انه قد ظهر اخيراً لمديري المعامل الصناعية ان متوسط قوة المرأة اقل من نصف متوسط قوة الرجل ومن اجل ذلك ضاعفوا أجرته .

* * *

والامر الثالث من الامور الخمسة « شهادة المرأة نصف شهادة الرجل » وكلمتي في الجواب عليه ان سر الشرع فيه ليس لكون محمد (ص) يعتقد في المرأة الحقارة او انها تكذب في شهادتها وانما هو يرى ان المرأة بعيدة عن معترك الاعمال التي يقوم بها الرجال والتي تكثر فيها الدسائس والمخادعات مما هي عليه من ضعف ثقتها بنفسها وقلة ضبطها وسرعة انخداعها . حتى انهم قد يخدعونها بقولهم لها يا حسناء . فما بالكم بغيرها من كلمات التمليق والثناء ؟ !

هذه هي نفسية المرأة التي تحققها محمد (ص) فرأى ان تتعزز عند تحمل الشهادة بواحدة من بنات جنسها فتذكر كل منهما صاحبتها وتتعاونان على التثبت من الامر

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الذي تشهدان فيه . فتنصيف الشهادة إذن هو اثر من آثار اعتقاد السذاجة الملائكية في المرأة لا اعتقاد الحقارة او خراب الذمة فيها .

على ان محمد (صلى الله عليه وسلم) ميز المرأة على الرجل في بعض مواطن الشهادة : الرجل لا تقبل شهادته وحده اما هي فتقبل شهادتها وحدها في الامور الخاصة بالنساء كالنفاس وما شاكل ذلك . وكفى بهذا دلالة على ثقة الشارع بالمرأة واعتقاد سلامة وجدانها .

* * *

ومن الامور التي يشنع بها العالم المتمدن على محمد (صلى الله عليه وسلم) شريعة الطلاق ، لكن هذه الشناعة عادوا فشاركونا فيها بمقياس اوسع .

محمد يعلم اننا مهما تحرينا ان يكون الزوجان متلائمين في اخلاقهما وطباعهما لا بد ان يقع (سوء استعمال) في هذا التحري ، حتى يؤدي تباين الطباع بين الزوجين احياناً كثيرة الى فساد الحب الزوجي وتنغيص الهناء العائلي . فيضطر اذ ذاك الى التفرقة و كثيراً ما كانت هذه التفرقة في مصلحة الزوجة فتتخلص من زوجها الشرير .

ومع هذا فان محمداً يكره الطلاق . ويأمر بالصبر . ففي القرآن : (وعاشروهن بالمعروف فان كرهتموهن فعسى ان تكرهوا شيئاً و يجعل الله فيه خيراً كثيراً) .

فالوحي المحمدي كابر الرجل في حسه مراعاة للمرأة حتى قال للرجل : انك وان شعرت بكره لامرأتك مايدريك ان يكون في هذا الكره الخير فاصبر عليها إذن .

الى هذا الحد حض محمد (ص) على تجنب الطلاق . لكن اتباعه خالفوا ناموس شريعته فنزل بهم البلاء .

وهذا لا ترجع تبعته عليه . الا ترون ان النواميس الطبيعية نفسها كنواميس الصحة والمرض مثلاً يخالفها الناس فيحل بهم الشقاء . وليس الذنب في ذلك على الاطباء . ولا على العناية الالهية التي خلقت تلك النواميس . وانما الذنب على الذين خالفوها . قال شيشرون : (من كان غير سعيد فالذنب ذنبه) .

افرط المسلمون في الطلاق فطلقوا من دون قيد ولا شرط وفرط النصارى فلم يطلقوا حتى عند وجود الضرورة . ثم في آخر الامر احس الفريقان بالشقاء . فعاد المسلمون في تركيا الى تضييق دائرة الطلاق . وعاد النصاري في اميركا والمانيا وانكلترا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الى توسيع تلك الدائرة وستكون النتيجة الاعتدال والتوسط ومراعاة الحكمة .
وهو ما اراده محمد في تشريع الطلاق .

* * *

وآخر الامور الخمسة التي يعيبون بها المسلمين « تعدد الزوجات » وكلني في هذا الموضوع تحتاج الى شيء من الجرأة في التصريح . ولكنني مع هذا سأعمل جهدي في العدول عنه الى الإشارة والتلميح .

واقول اولاً ان محمداً (ص) لم يخاطب بشرعه طبقة واحدة من مجموعة البشر كما خاطبها غيره من المشترعين وانما هو كان يخاطب الطبقات كلها اوالامم كلها . وفيهم أمة متوحشة . وأمة نصف متمدنة . وأمة متمدنة .

فمحمد (ص) في تعدد الزوجات يقول لكل أمة : خذي من شريعتي المرنة ماينا سب محيطك وحالة اجتماعك ، فاذا قالت طبقة من البشر انا لا أعدد قال لها محمد : تحسنين صنعاً ، لان التعدد في شريعتي مباح لا واجب . لكن هناك طائفة أخرى في إفريقية اوالصين مثلاً تضطرها حالة اجتماعها اوامزجة طباعها الى التعدد .

فمحمد اذا دعا هؤلاء الى دينه لا يقسر طباعهم على ما يريد . ولا يكلفهم ترك التعدد . خشية ان يدخل عليهم العنت والمشقة مادامو افي هذا الطور من اطوارهم الاجتماعية . ومن ثم اباح لهم التعدد ولاسيما اذا كان احدالزوجين عقيماً . او كثر عددالنساء بسبب اجتياح الحروب للرجال كما هو واقع اليوم في اوربا او لغير ذلك من الاسباب .

بل نعود فنقول : مالنا وللامم التي يبيح لها محمد (ص) التعدد بسائق من امزجتها او حالة اجتماعها .

هذه الامم المتمدنة نفسها ، تعدد بالفعل . وتنكر بالقول . وتسب الذين يعددون ! !

عرف محمد امزجة البشر . ودرس طبيعة رجولتهم درساً عميقاً ، فهو يكافح هذه الطبيعة وجهاً لوجه ويقول لاصحابها :

« ألستم بالفعل لاتصبرون على طعام واحد ؟ ألستم مدفوعين بسائق من طبيعتكم او أمزجتكم او اسباب أخرى الى ان تعرفوا امرأة ثانية غير امرأتكم الشرعية ؟ امحوا هذه الطبيعة من نفوسكم حتى امحوا انا التعدد من شريعتي . وماذا ينفع الانكار

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

او تجدي المكابرة في هذه المسألة ؟ ان كنا لا نرى أليس لنا آذان تسمع ؟ هؤلاء الرجال الذين يريدون ان يعرفوا نساء غير زوجاتهم الشرعيات لا يقول لهم محمد اعرفوهن بالحرام . واحشروا سلالتكم الى ملاجيء اللقطا والايتام . بل يقول لهم : اذا كنتم ولا بد فاعلين . فاعرفوا المرأة الثانية عن طريق تسامح الدين . اعرفوها عن يد الشيخ والقسيس . ولا تعرفوها عن يد الشيطان او ابليس .

فإباحة الزوجة الثانية في شرع محمد (ص) إذن انما هو سد لحاجة الطبيعة البشرية المتمردة ، التي لا تقاوم في بعض الاشخاص . على ان كل خطر على العائلة نتوقعه من وراء التعدد ينبغي ان نتوقع مثله من وراء اتخاذ الخلائل .

فالعائلة إذن معرضة للخطر في الاوساط غير الاسلامية . كما هي معرضة للخطر في الاوساط الاسلامية .

وقد بلغنا لهذا العهد ان المشترعين في اوربا اخذوا يفكرون في وضع قانون للتعدد السري يضيق دائرة شره . و ينقذ العائلات من الشقاء الذي يلحقها بسببه .

* * *

هذا هو ايتها السيدات والسادة ما أردت ان اقوله في موضوع «محمد (ص) والمرأة» .

وقد تحققتم منه ان محمداً (ص) انما جاء للتبشير بالمرأة ومنحها حريتها . وان الطلاق وبقية الامور الخمسة لا تشوه تلك الحرية بحال .

ولكن اذا كان محمد (ص) يريد للمرأة ان تكون حرة بالمعنى الحقوقي . فهو في مقابل ذلك يريد منها ان تكون حرة بالمعنى الاخلاقي .

فالحرة غير الحرة . تجعل الحياة مرة .

اما الحرة الحرة ، فهي التي تكون للعين قرة ، وفي جيد المحافل درة ، وفي جبين وطنها غرة .

المغربي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net